اثر المدرسة المصرية على الجانب الثقافي في بلاد الاندلس

The impact of the Egyptian school on the cultural aspect in Andalusia

م.م. اسراء جاسم حميد

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب / قسم التاريخ

asraajassem@uomustansiriyah.edu.iq

ma.m asraa jassem hamid

Al Mustansiriya University / College of Arts

asraajassem@uomustansiriyah.edu.iq

المستخلص :

تعد مصر من الممرات المهمة التي اسهمت بنقل التراث العلمي والحضاري للأندلس فكانت محط انظار واهتمام كبيرين من قبل علماء وفقهاء الاندلس، لما تتمتع به من مقومات علمية وما تظم من مدارس رفدت الاندلس بالعلوم المتنوعة, واسهم ذلك في توافد طلبة العلم اليها والاخذ منها والأنتهال من علومها ومعرفتها ، وتحفل كتب التراجم بأسماء الكثير من طلبة وعلماء الاندلس الذين وفدوا على مصر طلباً للعلم، وعملوا على نقل علومهم ومعارفهم الى الاندلس, فأسهمت المدرسة المصرية في تنمية وتطوير الجانب العلمي في الاندلس

كلمات مفتاحية : (الاندلس ، المدرسة المصرية ، الجانب الثقافي ، العلماء)

Abstract:

Egypt is considered one of the important passages that contributed to the transfer of the scientific and cultural heritage of Andalusia. It was the focus of great attention and interest by the scholars and jurists of Andalusia ,because of its scientific capabilities and the schools that provided Andalusia with various sciences. This contributed to the influx of students of knowledge to it and taking and drawing from it. Its sciences and knowledge, and biographies are full of the names of many Andalusian students and scholars who came to Egypt in search of education, and worked to transfer their sciences and knowledge to Andalusia. The Egyptian school contributed to developing the scientific affairs in Andalusia

Key words: (aliandilas , almualif aleilmiu , alkitaab althaqafiu , aleulama' , aleulama')

المقدمة :

أصبحت بلاد الأندلس بعد الفتح الاسلامي بلدا اسلاميا يدور في فلك العالم الاسلامي حضارة وفكرا وثقافة. وهذه الدراسة التي نحن بصددها عن تأثير المدرسة المصرية على الجانب الثقافي في الاندلس كي نبين مراحل الاتصال الفكري بين بلاد الأندلس ومصر ، التي وقفت على مدى تاريخها الاسلامي تغذى القادمين إليها من علماء الأندلس ومفكريها بما لديها من زاد فكرى وحضاري, وأصبح هؤلاء العلماء على اختلاف اتجاهاتهم حلقة الوصل بين حضارة المشرق الاسلامي المتأصلة ، وحضارة الغرب الاسلامي الجديدة .

والمتتبع لهؤلاء العلماء الوافدين الى مصر يجد نفسه بين أنماط كثيرة من العلماء مّمن ساهموا دون توقف أو انقطاع في اثراء الحياة الثقافية الأندلسية ، فمنهم من وفد الى مصر وهو في طريقه الى الحج ، ومنهم من جاء الى مصر بهدف تلقى العلم ، ومنهم من استقر بها وعاش فيها وتوفى ودفن في ثراها ، وأصبح جهده الفكري والعلمي يقع ضمن تراث مصر الثقافي الخالد .

المبحث الاول

تعريف المدرسة لغة واصطلاحاً :

أ – المدرسة في اللغة :

أخذت المدرسة من الفعل درس ، والتي تعني درس الكتاب: يدرسه ودراسة ، ودارسه أي عناده حتى انقاد لحفظه (منظور، ١٩٩٤م، صفحة ٦٠٧) .

ب – في الاصطلاح :

المدرسة : هي مكان الدراسة وطلب المعرفة والعلم ، جمع مدارس ، (معلوف، صفحة ٢١١) .

١– الحياة الثقافية في مصر :

اسهم الاستقلال الذاتي الذي تمتعت به الدول ومن ضمنها مصر في ظل الخلافة العباسية على ازدهار الحياة الثقافية في مصر اذ اخذت موجة استقلال الدول الى ظهور منافسة قوية بين الدول والاقاليم اذا اصبحت تنافس بغداد واصبح امراء كل قطر يفاخرون امراء القطر الاخر بالثروة العلمية, والادبية , والدينية (امين، ١٩٧٧م، صفحة ١ / ٩٥ . ٩٦) .

فكثرت الرحلة في طلب العلم لتلك الاقطار وكانت مصر في مقدمة تلك الاقطار (بردي، صفحة ج٤ / ٥) ؛ (العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ١٩٨٧، صفحة ١٤٦) ، فمنذ ان استقلت مصر لأول مرة على يد احمد ابن طولون (٢٥٤ – ٢٩٢ هـ) وللمرة الثانية على يد الوالي محمد بن طغج الاخشيدي (سعيد، ١٩٥٣م، صفحة ١٤٩) (الكندي، صفحة ٣٠٦) (المقريزي، المقفى الكبير، ١٩٨٧، صفحة ١٣٢) ، عمل حكامها على تشجيع الثقافة والاهتمام بالعلماء اذ حرصوا على منافسه العباسيين والامويين وتقريب العلماء اليهم (ابراهيم، ١٩٧٨، صفحة ١٤٠ . ١٤١) ، وكان من ابرز العلماء في تلك الفترة سيبويه المصري والفقيه ابو بكر بن الحداد (زولاق، ١٩٣٣، صفحة ٦٦) (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٢ / ٢٨٣) .

وكان أيضا دور الوزراء في تشجيع الحركة العلمية ومن ابرزهم جعفر بن الفرات الذي كان يغدق المال على العلماء (الحموي، ١٩٩١م، صفحة ٢ / ٣٧٦ . ٣٨٣) ، والوزير ابا شجاع الذي بعث الى المتنبي بهدية قيمتها الف دينار (بردي، صفحة ج٤ / ٥) (العبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، ١٩٨٧، صفحة ١٤٦) (احمد،

٢٠٠٥م، صفحة ٢٢) ، واستمرت مصر بالحركة العلمية حتى بعد انتقال الحكم الى الفاطميين اذ استمر حكامها بتشجيع الحركة العلمية فكانت المجالس والجوامع لها دور في بث الحركة العلمية ودار العلم التي انشأها الحاكم بأمر الله (المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار، ١٩٩٨م، صفحة ٢ / ٢٧٣) (هاينز، ١٩٩٩م، صفحة ١١٨) ، واستمرت الحركة العلمية بالازدهار في مصر حتى بعد انتهاء الحكم الفاطمي .

٢- اثر المدرسة المصرية على الجانب الثقافي للأندلس :

اسهمت شهرة العلماء المصريين ومكانتهم العلمية على جذب طلبة العلم ولتتلمذ على ايديهم ونهل منهم شتى العلوم والمعارف ونقلها الى الاندلس فقد اسهمت كتب التراجم برفدنا بالكثير من العلماء المصريين وتأثيرهم على طلبة العلم من اهل الاندلس فنذكر على سبيل المثال لا الحصر, محمد بن عبدالله بن عبد الحكم المصري (ت : ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م) الذي كان من علماء المالكية ورفد بعلمة طلبة الاندلس ومن ابرزهم محمد بن عبدالله الخولاني (القاضي، ١٩٩٨م، صفحة ١ / ٢٠٣) (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٣٧١) ، وايضاً من رفد العلم لأهل الاندلس المحدث ابو عبد الرحمن بن شعيب النسائي الخراساني الذي استوطن مصر، وله العديد من المصنفات، سمع منه الكثير من اهل الاندلس ابرزهم، محمد بن معاوية بن الاحمر الاندلسي، والنحاس (الذهبي، صفحة ١٥ / ١٢٥ . ١٢٧) (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ٧ / ٣٤) ، ومن العلماء المصريين الذي لهم دور بارز في الاثر العلمي في الاندلس ابو جعفر احمد بن محمد بن اسماعيل المرادي (ت : ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م) النحوي المصري (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ١ / ٥٨) (امين، ١٩٧٧م، صفحة ١ / ١٨٠) ، وسمع منه عدد كبير من الاندلسيين ومن ابرزهم خطاب بن مسلمة وعبد السلام بن السمح بن نابل وغيرهم الكثير .

٣. المدرسة المصرية وتأثيرها في العلوم الدينية في الاندلس :

ا- علوم القرآن :

ارتبطت بلاد الأندلس بمصر ارتباطا وثيقا في مجال الدراسات القرآنية ، باعتبار أن مصر أول بلدان العالم الاسلامي ذات التأثير المباشر ثقافيا لبلاد الأندلس ، حيث إن بلاد العرب كانت تعتمد هي الأخرى ثقافيا على مصر والمشرق ، ومن ثم فضل علماء الأندلس الاتصال بمصر مباشرة ، ودون وساطة ثقافية ، فبدأ العلماء الأندلسيون بالاتصال الشخصي المباشر بينهم و بين أقرانهم المصريين في مراكز الثقافة الذائعة الصيت في مصر ، وهي القاهرة والاسكندرية ودمياط, في الفسطاط والذى يلفت النظر أن الأندلسيين ركزوا في دراستهم القرآنية في مصر على علم القراءات, ولا أدل على ذلك من هذا الحشد الهائل من العلماء الأندلسيين الذين وفدوا

الى مصر ، وأسسوا هناك في الأندلس ، مدرسة القراءات الأندلسية معتمدة في بنائها العلمي على خبرات العلماء المصريين .

ومن أوائل علماء القراءات الأندلسيين الذين زاروا مصر العالم الأندلسي محمد بن عبد الله القرطبي ، الذى كان عالما بالقرآن ، بصيرا بالعربية, وقد تتلمذ هذا العالم الأندلسي على ورش تلميذ نافع , وأخذ عنه القراءة ونقلها الى الأندلس (الجزري، ١٩٨٠م، صفحة ٢ / ١٨٩) (السيوطي ج.، ١٩٩٨م، صفحة ١ / ١٥١) ، وكانت قراءة نافع معروفة قبل ذلك هناك في الأندلس ، نقلها الى الأندلس الغاز بن قيس (ت : ١٩٩ هـ / ٨٠٥ م) بعد أن أخذها عن نافع مباشرة في المدينة (البري، ١٩٧٠م، صفحة ٢٣٤) ، ومضى علماء الأندلس بعد ذلك خلال القرن الثالث الهجري في الاتصال بالعلماء لدراسة القراءات القرآنية في مصر ، فزار مصر محمد بن وضاح بن بديع (ت ٢٨٦ هـ / ٨٩٥ م) ، الذى قام بدراسة قراءة ورش ، ومعاودة نقلها من مصر الى الأندلس ، وقد حرص الأندلسيون عندما نقلوا قراءة ورش –في هذه المرة عن محمد بن وضاح –، على تدوينها في بلادهم , والمعروف أن محمد بن وضاح تلقى قراءة ورش عن عبد الصمد ابن عبد الرحمن تلميذ ورش (الجزري، ١٩٨٠م، صفحة ٢ / ٢٧٥) (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ١٥) , ولم تتوقف مهمة محمد بن وضاح في نقل خبرة العلماء المصريين عند هذا الحد ، وانما حمل الى الأندلس أيضا عن أستاذه عبد الصمد أول احصائية ظهرت في بلاد الأندلس ، عن عدد القرآن المدني الأول (الجزري، ١٩٨٠م، صفحة ٢ / ٢٧٥) ، وهو عدد آيات القرآن طبقا للمرة الأولى التي عدها فيها القارئان المدنيان أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، وشيبة بن نصاح (البري، ١٩٧٠م، صفحة ٢٣٣) ، وقد نالت قراءة محمد بن وضاح شهرة واسعة في بلاد الأندلس ، حيث تخلّ الناس عن الرواية القديمة التي رواها الغاز بن قيس هناك في الأندلس عن نافع ، واعتمدوا على رواية ابن وضاح (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ١٨٠) ، وهذا يشير بوضوح الى تأثير المدرسة المصرية في علم القراءات على الثقافة الدينية الأندلسية في ذلك الوقت .

ولذلك تتابع وصول علماء الأندلس من القراء الى مصر خلال القرن نفسه لتحصيل مزيد من الدراسات القرآنية ، فيصل الى مصر عالم أندلسي آخر هو ابراهيم بن محمد بن باز المعروف بأبي اسحاق بن القزاز القرطبي (ت : ٢٧٤ هـ / ٨٨٣ م) (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٦٠ . ٢٦١) , و تتلمذ القزاز على عبد الصمد نفس أستاذ ابن وضاح (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٦١) ، ولم ينتصف القرن الثالث الهجري حتى جاء الى مصر قارئ أندلسي آخر هو أبو القاسم مطرف بن عبد الرحمن بن الفرج ، الذى تتلمذ على يد عبد الرحمن بن داود بن أبى طيبة ، ومواس بن سهل ، وسمع الحروف من يونس بن عبد الأعلى , وبلغ مطرف حدا كبيرا من إجادة قراءة ورش حتى أن عمرو الداني الذى اشتهرت العلوم القرآنية بالتلاوات و المطابقات على النص القرآني على يديه

في الأندلس في بداية القرن الخامس الهجري وصف مطرف بأنه من أهل الضبط والاتقان والمعرفة بقراءة نافع برواية ورش , وكان له كناب حسن في (الأداء) (الجزري، ١٩٨٠م، صفحة ٢ / ٣٠٠) , وفي نهاية القرن الثالث الهجري ، وصل الى مصر المقرئ الأندلسي ز كريا بن يحيى , وقام زكريا بعرض قراءته على كبار أساتذة مدرسة ورش ، مثل مواس بن سهل ، وحبيب بن اسحاق ، وبكر بن سهل وأصبح ابن يحيى خير من يمثل هذه المدرسة في بلاد الأندلس (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٩٤ . ٢٩٥) .

وشهد القرن الرابع الهجري وفادة عددا من القراء الأندلسيين البارزين على مصر, واصلوا جهودهم لنقل القراءات القرآنية ، وخاصة قراءة ورش الى الأندلس ، منهم المقرئ عبد الكبير بن محمد الجزري الأندلسي (ت ٣٦٠ هـ / ٩٦٥ م) ، الذي سمع من أبى غانم المظفر بن أحمد ، أحد أساتذة مدرسة ورش ، وغيره من كبار القراء المصريين وحين عاد عبد الكبير الى الأندلس . تصدر للأقراء بقرطبة بجامع الزهراء حيث ظل يقرئ الى أن توفى (الجزري، ١٩٨٠م، صفحة ١ / ٤٠٠) ، ومن الذين شهدتهم مصر في النصف الثاني من القرن الرابع من علماء الأندلس الذين اهتموا بالقرآن وعلومه محمد بن مفرج بن عبد الله ابن مفرج المعافري (ت : ٣٧١ هـ / ٩٧٥ م) جاء محمد من قرطبة ، وسمع في مصر من عبد الملك بن محمد بن بحر ين شاذان الجلاب ، ولقى بها أبا جعفر النحاس ، وقد روى محمد بن مفرج في الأندلس –تأليف أبى جعفر النحاس – في إعراب القرآن ، وفي المعاني ، والناسخ والمنسوخ ، وكان المعافري أول من أدخل هذه الكتب الى الأندلس (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ٢ / ٨١ . ٨٢) , وكانت الأندلس قد ارتبطت بمصر ار تباطا وثيقا في مجال علوم القرآن حتى أن المستنصر بالله (٣٥٠– ٣٦٦ هـ) ، أرسل الى مصر في طلب مقرئ , يقرئ الناس بالأندلس ، فقدم إليه من مصر في ذلك الوقت أبو الحسن التميمي الأنطاكي (ت ٣٧٧ هـ / ٩٨١ م) , وأصبح هذا المقرئ المصري في الأندلس شيخها وسندها (البري، ١٩٧٠م، صفحة ٢٣٥) ، ولم يتوقف وصول القراء الأندلسيين الى مصر ، ففي منتصف القرن الخامس ، كان في مصر اسماعيل بن خلف بن سعد بن عمران الأندلسي (ت ٤٥٥ هـ / ١٠٥٩ م) ، وكان كما يقول السيوطي «مصنف العنوان في القراءات» (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٤٩٤) .

وفى القرن السادس الهجري كان في الاسكندرية اليسع بن حزم أبو يحيى الغافقي الأندلسي الجياني (ت : ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م) ، سكن هذا المقرئ الأندلسي الاسكندرية ، وأقرأ بها ، ثم رحل عنها الى مصر فأكرمه الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ . ٥٨٩ هـ) حيث كان فقيرا مقرئا حافظا (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٤٦) , وفى الفترة نفسها أيضا والى نهاية هذا القرن نسمع في مصر عن عالم الأندلسي القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الامام الرعيني الشاطبي ، الذى كان مقرئا ضريرا ، ارتحل من الاندلس للحج فسمع من السافي ، واستوطن مصر ، واشتهر اسمه ، وبعد صيته ، وقصده الطلبة من سائر نواحي مصر ، فقد كان علاّمة منقطع

النظير ، رأسا في القراءات ، حافظا للحديث بصيرا بالعربية ، قرأ عليه ابو الحسن السخاوى ، والكمال الضرير ، وآخر من روى عنه الشاطبية مؤلف في القراءات منسوب الى الشاطبي أبو محمد عبد الله عبد الوارث الأنصاري المعروف ابن فار اللبن (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٤٩٦ . ٤٩٧) .

وفى القرن السابع الهجري ، أصبحت الشاطبية وشروحها من المهام الرئيسية لعلماء القراءات ، وخاصة الأندلسيين منهم ، فقد شرحها أحمد ابن علي بن محمد بن سكن المعروف بأبي العباس الأندلسي (ت ٦٤٠ هـ / ١٢٤٥ م) ، الذى كانت اقامته الدائمة في مدينة الفيوم ، وكان أحد الحذاق في علم القراءات كما يروى السيوطي والمقري (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٥٠١) (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ١ / ١٣٧) ، وينبغي هنا أن نقف أمام ظاهرة نلفت النظر إليها وهى أن مدرسة القراءات الأندلسية ظلت حتى نهاية القرن الخامس الهجري تجمع محصولها العلمي عن طريق علمائها الوافدين الى مصر ، والذين اتصلوا بالعلماء المصريين اتصالا مباشرا ، وتأثروا بهم ، وبهذا اتضح الأثر المشرقي عامة والمصري بصفة خاصة في هذا اللون من الدراسات القرآنية ، ولا شك أن ذلك كان له أثره الكبير في دعم اوتاد الاسلام في بلاد الأندلس ، حيث ظهر هؤلاء العلماء –ا لذين تتلمذوا في مصر – في بلاد الأندلس كطبقة علمية متميزة على أقرانهم الذين لم يتصلوا بهذه البيئات العلمية المشرقية .

وفي مطلع القرن السادس الهجري تغير وجه هذه الظاهرة ، على النحو الذى رصدناه قبل ذلك ، فرأينا كثيرا من علماء الأندلس من القراء ، يتسابقون الى الاستقرار في مصر ، والقاء ما لديهم من علوم ومعارف في المدرسة المصرية ، ولا شك أن ذلك ارتبط ارتباطا وثيقا بالأوضاع السياسية للمسلمين في بلاد الأندلس التي كانت تعانى انذاك من ضغوط قوى الاسترداد المسيحي لها .

ب– علم الحديث والفقه :

تركزت جهود علماء الأندلس منذ زمن مبكر حول دراسة الحديث باعتباره الأصل الثاني من أصول التشريع الاسلامي ، وكان عيسى بن دينار (ت : ٢١٠ هـ / ٨١٥ م) من أوائل المحدثين الفقهاء الذين وفدوا الى مصر وسمعوا من عيسى بن القاسم ، وابن وهب ، وكان محمد بن وضاح يقول عنه " هو الذى علم أهل الأندلس الفقه " ، وكان بعد عودته الى الأندلس لا يتقدمه أحد من علماء قرطبة في الفتيا (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ٢ / ٦٤ . ٦٥) , وابن الفرضي في مؤلفه عن تاريخ العلماء والرواة بالأندلس يقرر ان علم الحديث وعلم أصول الفقه قد دخلا الأندلس متلازمين على يد كل من محمد بن وضاح (ت ٢٨٧ هـ / ٨٩١ م) ، وبقى بن مخلد (ت : ٢٧٦ هـ / ٨٧٩ م) (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ١ / ٩٢) , لأنه بفضل هذين العالمين ، أصبحت الأندلس دار حديث

واسناد بعد أن كان الغالب عليها حفظ رأى مالك وأصحابه , أما محمد بن وضاح فقد سمع الحديث من مائة وخمسة وسبعين رجلا من بينهم عدد كبير من علماء الحديث من المصريين ، وكذا بقى بن مخلد ، فإن عدد شيوخه بلغ المائتين، من بينهم مصريون أيضا ، كما أدخل بقى الى الأندلس كتاب الفقه لمحمد ابن ادريس الشافعي (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ١ / ٩٢) , رغم ما لقيه هذا اللون من الفقه من مقاومة كبيرة ، وذلك بسبب تمسك فقهاء الأندلس بموطأ مالك الذى رتبت فيه الأحاديث بحسب أبواب الفقه (بدر، ١٩٧٢م، صفحة ١٧٨) .

ومنذ القرن الرابع الهجري ، بدأ علماء الحديث والفقه من الأندلسيين ينشطون أكثر من ذي قبل في الاتصال بأقرانهم المصريين ، وكان ثابت ابن حزم (ت : ٣١٤ هـ / ٩١٩ م) في طليعة علماء القرن الرابع من الأندلسيين القادمين الى مصر سمع في مصر من البزار والنسائي (بدر، ١٩٧٢م، صفحة ١٠٠) ، وكان عالما بصيرا بالحديث والفقه ، ألف في الحديث كتاب " الدلائل في شرح ما أغفل أبو عبيدة وابن قتيبة من غريب الحديث " ، وقد كان هذا المحدّث الجليل مرموقا ، وموضع تقدير كثير من العلماء ، قال عنه أبو علي القالي : " ما أعلم أنه وضع بالأندلس مثل كتاب الدلائل " ؛ وقال ابن الفرضي : " ولو قال ابو علي ما وضع بالمشرق مثله ما أبعد " (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ١ / ٢٣٦) .

ومن شذونة بالأندلس جاء الى مصر عبد الله أبو محمد الأصيل (ت : ٣٩٢ هـ / ٩٩٨ م) ، فلقى بها أبا الطاهر البغدادي ، وابن شعبان والنيسابوري وغيرهم ، وبعد تجوال بالمشرق ومصر عاد الى الأندلس حيث انتهت اليه هناك رئاسة المالكية ، وألف كتابا على الموطأ سماه « الدليل » ، وانتشر له هناك أيضا كتاب في نوادر الحديث في خمسة أجزاء (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٤٣٣ . ٤٣٤) ، ويذكر ابن الفرضي انه ألف كتابا بعنوان " الدلائل على أمهات المسائل " جمع فيه وجوه الخلاف بين مالك والشافعي وأبي حنيفة (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ١ / ٢٤٩) ، ويبدو هنا التأثير المصري واضحا في ظهور طلائع الفقه المقارن في بلاد الأندلس ، وهى بيئة تعول كثيرا على المذهب المالكي ,وقبل ان ينتهى القرن الرابع الهجري ، وصل الى مصر سهلون بن محمد المعروف بابن الدباغ (ت : ٣٩٣ هـ / ٩٩٦ م) ، وقد سمع سهلون من حمزة بن محمد الكناني ، والحسن بن رشيق ، وأبي محمد بن الورد ، وأبى السكن و كان ذلك في العصر الفاطمي ومن المؤلفات التى اشتغل ابن الدباغ بتخريجها ، " سند حديث شعبة " (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٣٥٥) ، وواضح من هذه المؤلفات الجديدة عند الأندلسيين أنهم استفادوا كثيرا من خبرة علماء الحديث, و الفقه المصريين ، وأن خبراتهم التي اكتسبوها في مجال علم الحديث بالذات ، جعلتهم يتجهون نحو التأليف في غريب الحديث و نادره ، وتخريج المسانيد المعروفة .

ومن محدثي القرن الخامس الذين وفدوا الى مصر أبو عبد الله محمد ابن أبى نصر فتوح بن عبد الله الحميدي الأندلسي (ت : ٤٨٨ هـ / ١٠٩٢ م) وهو صاحب كتاب " الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم " (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٢ / ٢٨٢ . ٢٨٤) ، ومن أثرياء أشبيليه وذوى الحسب فيها الذين رحلوا الى مصر في القرن السادس الهجري لدراسة الحديث ، الحسن ين عمر بن الحسن بن عمر الأشبيلي (ت : ٥١٢ هـ / ١١١٥ م) زار الاسكندرية وسمع بها من علماء وقته ، وسمع في مصر عن أبي الحسن الخلي ، وأحمد بن يحيى بن الجارود ، و كان الحسن كما وصفه ابن فرحون ، عالي الرواية مهتما بالضبط ، وحفظ أسماء الرجال (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٣٢٩) .

وفى أوائل القرن نفسه ايضا كان في مصر أبو علي الصدفي المعروف بابن سكرة السرقسطي (ت : ٥١٤ هـ / ١١١٩ م) (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٣٣٠ . ٣٣٢) ، وهو من كبار المحدثين الأندلسيين الذين تلقوا كثيرا من محصولهم العلمي في مصر, ويروى ابن فرحون أنه كان امام عصره في علم الحديث ، وآخر ائمته في الأندلس ، سمع الصدفي بمصر ، من أبى الحسن الخلي وأحمد بن يحيى بن الجارود ، وغير هما ومن الشيخ أبى بكر الطرطوشي وعندما عاد أبو علي الى الأندلس ، نال شهرة واسعة في مرسيه حيث قلد هناك منصب القضاء بطلب من أهلها ، وكانت مدرسة مرسيه هي مقره الذي لقن فيها علمه لكثير من علماء الأندلس فأجاز لأبي القاسم ابن بشكوال وغيره (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٣٣٠ . ٣٣٢) , ومن رجال الحديث الأندلسيين الذين استفادوا من مصر كثيرا وفي المدة نفسها أبو بكر بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي (ت : ٥٤٣ هـ / ١١٤٩ م) لقى ابن عربي بمصر والاسكندرية جماعة من كبار المحدثين المصريين ، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم ثم عاد الى الأندلس بعلم كثير لم يدخله إليها أحد قبله ممن كانت له رحلة الى المشرق (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٤ / ٢٩٦ . ٢٩٧) (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٢٨) ، وفى أواخر القرن السادس الهجري لمع في مصر نجم عالم اندلسي مشهور هو الحافظ أبو الخطاب بن دحية الذى جاء الى مصر في أيام الأيوبيين ، فرفعوا شأنه وقربوا له مكانه ، وجمعوا له علماء الحديث ، وحضروا له مجلسا أقروا له بالتقدم ، وعرفوا أنه من أولى الضبط والاتقان والتفهم ، وذكروا أحاديث بأسانيد حولوا متونها ، فأعاد أبو الخطاب المتون المحولة ، وعرف عن تغييرها ، (ذكر الأحاديث على ما هي عليها من متونها الأصلية) (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٢ / ١٠٠) ، وهذا الحادث يكشف عن العلاقة الطيبة بين البلاط الأيوبي ، وبين علماء الأندلس ، حيث كانت تعقد مثل هذه الندوات العلمية ، ويكون علماء الأندلس الأفذاذ من بين أعضاء هذه ندوات .

وبعد جولة في المشرق والمغرب عاد ابن دحية ليستقر في مصر فجعله العادل (ت : ٦١٥ هـ / ١٢١٩ م) أستاذا لولده الكامل الأيوبي ، وأسكنه الملك العادل القاهرة ، وأقبل عليه الكامل بعد ذلك اقبالا عظيما ، وكان

مشغوفا بسماع الحديث النبوي ، فبنى لأستاذه ابن دحية مدرسة الحديث الكاملية بالقاهرة في الموضع المعروف ببين القصرين (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ١٠٢ . ١٠٤) ، ويروى أن الكامل كان يعظم ابن دحية ويحترمه ، ويعتقد فيه الخير ، ويتبرك به ، " حتى انه كان يسوى له المداس حين يقوم " (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ١٠٤) .

ويأتي القرن السابع الهجري فيزداد إقبال علماء الحديث, والفقه من الأندلسيين على مصر ، ففي مطلع هذا القرن نصادف أبا عمر ابن عات النفزي (ت : ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م) والذي زار مصر ضمن رحلته الى المشرق لتلقى العلم ، فلقى بالإسكندرية ، أبا الطاهر السلفي وقاسم بن العريف ، وغير هما من علماء مصر (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٦٠١) ؛ (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٣١) ، قال ابن فرحون : " وكان من أكابر المحدثين ، وجلة الحفاظ المسندين للحديث والأدب بلا مدافعة ، يسرد الأسانيد والمتون ظاهرا فلا يخل بحفظ شيء منها ، ثقة عدلا مأمونا مرضيا ، متوسط الطبقة في حفظ فروع الفقه ، ومعروف المسائل " (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٣٢) ، وله مؤلفات تضمنت مروياته وآرائه ، منها " النزهة في التعريف بشيوخ الوجهة " و " ريحانة التنفيس وراحة الأنفس في ذكر شيوخ الأندلس " (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٣١ . ٢٣٢) , و بعد ابن عات قدم الى مصر عبد الله بن الحسين المعروف بالعبدري (ت : ٦٢٢هـ / ١٢٢٥ م) تفقه في الاسكندرية على يد أبى القاسم مخلوف بن علي المعروف بابن جارة ، وسمع عليه ، وعلى الامام أبى الطاهر اسماعيل بن مكى بن عوف ، وأبى الطيب عبد المنعم بن يحيى الحميري وسمع من الحافظ السلفي، والعبدري من الأندلسيين الذين استقروا في مصر ، وأنشأ مدرسة ورباطا بالقرب من داره ، بموضع كان يعرف في القاهرة " بسويقة الصاح " ، وأوقف لهما مرتبات خاصة بهما ، وله كتاب صنفه في الفقه على المذهب المالكي ، أسماه (البصائر) (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٤٥٠ . ٤٥١) ، ثم نسمع بعد ذلك بمصر, والاسكندرية عن أندلسي آخر ، هو أبو العباس الأنصاري (ت :٦٢٦ هـ/١٢٢٩م) ، وقد استوطن هذا العالم الاسكندرية ، ودرس بها ، حتى اصبح أحد الأئمة المشهورين, والعلماء المعروفين في عصرهم ، في علم الحديث, والفقه والعربية له شرح على صحيح مسلم سماه (المفهم)، واختصر صحيحي البخاري ومسلم ، ومن شيوخ المالكية الأندلسيين الذين استقروا بمصر، وطال ذكرهم فيها، الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق المعروف بالجمال (ت : ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ م) , سمع الحديث بمصر من والده ، وبالإسكندرية من أبى الطاهر اسماعيل ابن عوف ، وانتفع كثير من الناس بعلمه ، حيث تصدر للتدريس والافتاء بمصر ، وتخرج على يديه كثير من طلاب المذهب المالكي (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٣٣ . ٢٣٤) ، يقول عنه ابن فرحون : " كان شيخ المالكية في وقته ، وعليه مدار الفتوى في الفقه بالديار المصرية ، و كان عالما بأصول الدين وأصول الفقه ، والخلاف وغير ذلك " (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٣٣٤) ، والذى نلاحظه أن علماء الحديث في ذلك الوقت من الأندلسيين اهتموا كثيرا باختصار كتب الصحاح ،

وهذه الظاهرة تعنى تراجع الجهود المبذولة في هذا الفرع من العلوم الدينية , ويبدو أن المحن التي أصابت العالم الاسلامي في ذلك الوقت نتيجة لضعف الخلافة في المشرق الاسلامي ، وضعف المقاومة الاسلامية في الأندلس ، وانحسار القوة الاسلامية أمام المد العالي لقوى الاسترداد المسيحي ، يبدو أن ذلك كله كان له آثار في خلق جو من الكساد العلمي والفكري .

ورغم هذه الأحوال ظلت الأندلس على صلة علمية بمصر حتى في أيامها الأخيرة في عهد بنى الأحمر آخر ملوك المسلمين في الأندلس فمن العلماء الذين قدموا الى مصر في ذلك الوقت عبد الله بن أبى أحمد بن محمود بن منخل بن زيد الغافقي ، الذى كان من أهل غرناطة عاصمة بنى الأحمر وفي مصر أخذ عن الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، وعن الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي ، وعز الدين ابن عبد السلام ، وألف كتابا أسماه (بالمنهاج) في ترتيب مسائل أبي عبد الله ابن الحاج (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٤٤٤ . ٤٤٥) , ومن هؤلاء العلماء أيضا في الفترة نفسها سلمون بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني الذي تلقى العلم في مصر على يد شرف الدين الدمياطي، وأبو الحسن بن مضاء ، وشهاب الدين الابرقوهي ، وأبو الشكر الحميدي ، وأبو بكر بن عبيدة ، وتركز اهتمام هذا العالم في مجال التأليف في الوثائق المرتبطة بالأحكام ، حيت ألف فيها كتابا مفيدا, كما دون مشيخته ، وبرنامج روايته (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٣٩٧ . ٣٩٨) .

المبحث الثاني

اثر المدرسة المصرية في المواد العلمية

١ – اللغة والأدب والنحو :

على رغم كون الفاتحين العرب كانوا قلة بالنسبة لمجموع سكان الجزيرة الأندلسية ، الا أنهم كانوا الحكام ، ولغتهم لغة الادارة ، كما أنها لغة الدين الاسلامي الذى دخلت فيه نسبة كبيرة من السكان ، مما جعل العربية الفصحى تسيطر مع مرور الزمن في جميع مجالات الثقافة والفكر ، وتستلب من اللاتينية الفصحى أهلها ، لذا حرص الأندلسيون على الاتصال بالنتاج المشرقي في علوم اللغة, والأدب, والنحو ، والذى يلاحظ أن هذه العلوم لم تأت الى الأندلس وحيدة وانما جاءت إليها مرتبطة بعلوم الدين (بدر، ١٩٧٢م، صفحة ١ / ١٨٠ . ١٨٣) ، وهذا الارتباط نجده واضحا عند علماء اللغة الذين وفدوا الى مصر سواء من استقر منهم فيها أو عاد الى وطنه بعد انتهاء رحلة التلقي ، فلم تكن مهمتهم تنحصر في علوم الدين فحسب وانما تخطتها الى ألوان أخرى من علوم العربية والأدب والنحو .

ومن هؤلاء العلماء أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن السيد بن مغلس القيسي الأندلسي (ت : ٤٢٧ هـ / ١٠٣١ م) ، الذى رحل الى مصر ، واستوطنها وكان من أهل العلم بالعربية مشارا إليه فيها ، قرا الأدب في مصر على يد ابي العلاء صاعد ابن الحسن الربعي صاحب كتاب (الفصوص) ، وعلى يد أبى يعقوب النحيري بمصر ، وله أشعار كثيرة بينه وبين أبي الطاهر اسماعيل بن خلف وهو أندلسي أيضا ، وصاحب كتاب (العنوان) وهى معارضات في قصائد موجودة في ديوانها (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٣ / ١٩٣ . ١٩٤) (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ١٣٢ . ١٣٣) , وعالم أندلسي آخر هو أبو عمر بن عات النفزي (ت : ٦٠٩ هـ / ١٠١٢ م) ، زار مصر ضمن رحلته الى المشرق ، وفى الاسكندرية لقى أبا الطاهر السلفي ، وقاسم بن العريف ، قال عنه ابن فرحون : " كان من أكابر المحدثين وجلّة الحفاظ المسندين للحديث والأدب بلا مدافعة " (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٣١ . ٢٣٢) , كما كان أبو العباس الأنصاري الأندلسي (ت : ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) ممن نزل الاسكندرية من العلماء الاندلسيين ، واستوطنها ، وهو من العلماء المعروفين في عصرهم في علم الحديث والفقه والعربية (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ٢٤٠ . ٢٤١) , وكذلك كان أبو الخطاب عمر بن الحسين بن علي بن دحية من أعيان العلماء الأندلسيين العارفين بالنحو الذى سبق الحديث عنه واللغة ، وقد استقر هذا العالم بمصر ، وتوفى بالقاهرة ، ودفن في سفح قطم سنة (٦٣٣ هـ / ١٢٣٩ م) (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٣ / ٤٤٨ . ٤٥٠).

أما علم النحو فقد ازدهر في الأندلس نتيجة لاتصال علمائه الأندلسيين بالمشرق الاسلامي ومصر ، وللجهود المتعاقبة من جانب علمائه الذين لم يكفوا عن البحث, والتأليف, والاطلاع واكتساب الخبرات المتعددة فيه ، وقدم الأندلس لعالم العربية عددا كبيرا من فحول علماء النحو كابن مالك الذى كان من أوسع علماء العرب شهرة في علم النحو ، ومن بين مؤلفاته الكبيرة (الكافية الشافية) وتقع في ثلاثة آلاف بيت ، والالفية التي هي مختصر للكافية (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٢٣٢) (بالنثيا، ١٩٧٨م، صفحة ١٨٦ . ١٨٧) ، وقد كان حرص الأندلسيين في هذا المضمار مدعاة الى أن يتصل بعض علمائهم بأقرانهم من العلماء المصريين ، والمصادر لا تسعفنا بمعلومات عن هؤلاء النحويين الأندلسيين الذين جاءوا الى مصر في الفترات المتقدمة اذ اكتفت هذه المصادر بقولها إنهم رحلوا الى المشرق فقط دون الاشارة الى مصر ، ولكن نعثر عند السيوطي في حسن المحاضرة على محمد بن علي ابن يونس المعروف بالرضى الشاطبي (ت : ٦٨٤ هـ / ١٢٩٠ م) ويذكر أنه تصدر لتعليم النحو بالقاهرة ، وأخذ عنه كثير من الناس في مصر (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٥٣٣ . ٥٣٤) ، وبعده جاء الى مصر أثير الدين عمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي الغرناطي ، ويعد نحوى عصره ولغويه ومقرئه ، أخذ بمصر عن البهاء النحاس ، وتقدم في النحو في حياة شيوخه (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٢٣٤) ، وأبدى في القاهرة نشاطا علميا خلف شيخه البهاء النحاس في أستاذية النحو , كما كان شيخ

المحدثين في المدرسة المنصورية في القاهرة ، وكان يقرأ القرآن في المسجد أيضا (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٥٣٦) .

وتعكس حياة هذا العالم الجليل الذى كان يميل الى حياة التقشف جانبا من حياة مجتمع العلماء الوافدين الى مصر في هذا العصر ، فقد كان أثير الدين يقول : "يكفى الفقير في مصر أربعة أفلس : يشتري له بائتة بفلسين يأكل به الخبز ، وكان يعيب على مشترى الكتب ويقول : الله يرزقك عقلا نعيش به أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف واذا اردت من أحد أن يعيرني دراهم لم أجد ذلك" (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٥٤٣) , وأقوال هذا العالم تعكس سهولة الحياة في المجتمع المصري في هذه الفترة ، كما تشير الى ارتفاع مستوى الخدمة المكتبية المتاحة للعلماء في ذلك الوقت .

٢ – الطب والصيدلة :

وفي مجال الطب اعتمد عرب الأندلس في أول أمرهم على قوم من النصارى ، وهؤلاء النصارى كانوا يعولون في معلوماتهم الطبية على كتاب قديم يقال له الأبرشيم ، وتفسيره (الجامع أو المجموع) ، وعندما شرع الأندلسيون بعد ذلك في ممارسة مهنة الطب ، اهتم أكثرهم بقراءة (الكنانيش) ، وهى مجموعات الوصفات الطبية، وكان هدفهم من ذلك الاستفادة السريعة بثمرة هذه الصناعة في خدمة الملوك (بدر، ١٩٧٢م، صفحة ١٧٦) , وما أن جاء عصر الخلافة الأندلسية حتى اتجه الأطباء الأندلسيون الى المشرق ومصر اللذين أصبحا مركزا هاما لدراسة العلوم الطبية ، ومن أشهر أطباء الأندلس الذين رحلوا الى مصر ، محمد بن عبدون الجبل الذى بدأ رحلته إليها سنة (٣٤٧ هـ/٩٥٨م) وفي مصر أسند الى هذا الطبيب ادارة وتدبير بيمارستان الفسطاط (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ١٥١ . ١٥٢) (بدر، ١٩٧٢م، صفحة ٤٦١) (بالنثيا، ١٩٧٨م، صفحة ١٩٣).

كما وفد الى مصر من أطباء الأندلس يحيى بن اسماعيل البياش ، الذي أصبح في مصر الطبيب الخاص بعلاج صلاح الدين الأيوبي (بالنثيا، ١٩٧٨م، صفحة ٤٥٧) , وتدعمت بعد ذلك صلات الأطباء المصريين بالأطباء الأندلسيين حتى صرنا نرى الطبيب المصري نسطاس بن جريج ، يكتب رسالة في البول ، لخالد بن يزيد بن رومان النصراني أحد الأطباء الأندلسيين المشهورين وهذا يعكس لونا من ألوان التعاون العلمي بين الطرفين (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٦٩٢) (بالنثيا، ١٩٧٨م، صفحة ٤٦٢) , وفى النصف الأول من القرن السابع الهجري قدم الى مصر ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن البيطار ، وهو من أعظم الأطباء, وعلماء الصيدلة العرب ، الذين برعوا في العشابة ، وعلم النبات ، وأصبح بمصر بعد قدومه رئيسا على الحكماء ، وسائر العشابين كما يقول المقري ، واستفاد الملك الكامل بن الملك العادل من تفوقه ، فأدخله في خدمته ، و كان

حظيا أيضا عند ولده الصالح (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٦٩٢) , كما ان ابن البيطار أستاذ لابن أبى أصيبعة ، صاحب " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " (بالنثيا، ١٩٧٨م، صفحة ٤٧٩) , وأشهر كتب ابن البيطار ، كتاب (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية) جمع فيه أكثر من (٢٣٣٠ مادة) بما ذكره سابقوه من علماء اليونان والعرب عن الأدوية ، وزاد عليها ثلاثمائة لم يشر بها أحد قبله (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٥٤٢) , وفى الفترة نفسها زار مصر أحمد بن محمد ين ابى مفرج المتوفى سنة (ت : ٦٣٧ هـ / ١٢٤٢ م) ، والذى عرف بالعشاب أو بابن الرومية ، ويذكر ابن فرحون في الديباج المذهب ، " أنه كان أعجوبة الزمان في عصره ، وما قبله وبعده في معرفة علم النبات ، وتمييز العشب وتحليلها و أثبات أعيانها على اختلاف أطوارها بمنابت المشرق والمغرب لا مدافع له في ذلك ولا منازع حجة لا ترد ولا تدفع " (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ١ / ١٩١ . ١٩٢) ، ويبدو ان زيارته لمصر كانت للتعرف على البيئات النباتية والأعشاب الطبية بها ودراستها, وتصنيفها .

٣- التاريخ :

تعددت ألوان الكتابة التاريخية عند المؤرخين الأندلسيين ، وهى على تعددها ظلت متأثرة بالروح الشرقية في المنهج والطريقة ، ويلاحظ أن كتابة التاريخ الأندلسي ظلت في يد والمصريين حتى القرن الرابع الهجري حيث أخذ أثر المصريين يضعف ويتضاءل لأن الثقافة الأندلسية في ذلك الوقت أخذت في الازدهار ، وبدأت تعتمد على نفسها وتستقل بشخصيتها عن ومصر والمشرق (العبادي، في تاريخ المغرب والاندلس، صفحة ١ / ٣٣٧) ، ويظهر ذلك وبوضوح عند أوائل المؤرخين الأندلسيين الذين زاروا مصر ، كعبد الملك بن حبيب الالبيري الذى عاش فترة من حياته في مصر ، تتلمذ فيها على علمائها ، وهو صاحب كتاب مبتدأ خلق والدنيا ، وقد جاء هذا الكتاب مصرياً في روايته ومصادره ، ونتيجة لذلك جعله بعض المؤرخين في عداد الكتب المصرية (الفرضي، ١٩٦٦م، صفحة ١ / ٢٧٢) (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ج٢ / ٨ . ١٥) ، وله أيضا كتاب في مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم وآخر في حروب الاسلام (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ج٢ / ١٣) , وقد زار مصر بعد هذه الفترة المؤرخ الأندلسي أبو عبد الله محمد ابن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميدي ، الأندلسي ، الذى رحل الى مصر سنة (٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) وألف في التاريخ كتابه المشهور (جذوة المقتبس) (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٤ / ٢٨٢ . ٢٨٤) ، ومن أهم المؤرخين الذين زاروا مصر المؤرخ الأندلسي أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي (ت ٥٢٥ هـ / ١١٣٢ م) (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ١٩٢) , الذي خرج من الأندلس سنة (٤٧٦ هـ / ١٠٨٢ م) الى المشرق فزار بلدانه ، واستقر أخيرا في مصر حيث قضى بقية حياته فيها (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٨٨) , وفي مصر تعددت مؤلفات الطرطوشى التي كان أهمها على الاطلاق

مؤلفه التاريخي المعروف (بسراج الملوك) ، الذى ألفه للمأمون البطائحي الوزير الفاطمي وفى هذا السفر العظيم تناول واجبات الملوك ، والفضائل والاخلاق التي يجب أن يتحلوا بها وخصالهم في السلم, والحرب (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ١٩٢) (العبادي، في تاريخ المغرب والاندلس، صفحة ٣٥٠) , والكتاب في حجم متوسط ، تزيد صفحاته على المئتين قليلا ، ويمثل لونا من ألوان النشاط الفكري التاريخي في هذه الفترة حيث لم يذهب المؤرخ في كتابه (مذهب النصح والإرشاد) مباشرة وانما فعل ذلك من خلال روايات تاريخية ، تؤكد المفاهيم التي يعرضها للملوك ، والحكام ومن هنا كانت للكتاب قيمته العلمية التاريخية (الطرطوشي، ١٩٥٤م، صفحة ١ / ٢٠٨) ، وعاش الطرطوشي في الاسكندرية ، وتزوج من سيدة مصرية ذات ثراء هيأت له دارا كبيرة اذ اتخذ الطرطوشى الطابق العلوى منها سكنا له ولزوجته أما طابقها السفل فجعله مدرسة ، أقبل عليه فيها طلاب العلم ينهلون فيها من علمه في الحديث والفقه, ومسائل الخلاف وكانت مدرسة الطرطوشى ذات ملامح مميزة في ذلك الوقت حيث ابتكر طريقة جديدة لتنشيط معلومات طلبته ، فكان يخرج بهم بين الحين والحين في رحلات دراسية الى الخلاء والبساتين خارج مدينة الاسكندرية ، حس الطلبة في فرحة ومذاكرة ومداعبة ، وقد أقبل الطلبة على هذا اللون المحبب من التدريس فبلغ عددهم في بعض الأوقات مع الطرطوشي ثلاثمائة وستين دارسا (فرحون، ١٩٧٤م، صفحة ٢٤٤ . ٢٤٨) ، وبلغت هذه المدرسة التي كانت مدرسة أهلية في كل مقوماتها شهرة كبيرة ، فيذكر: ان محمد بن تومرت مؤسس دعوة الموحدين كان من بين طلبتها الذين أخذوا عن الطرطوشى في مدرسة الاسكندرية , وكان الطرطوشى قويا في مواجهة أي انحراف لا يتفق و قواعد الشرع ,فيروى في كتابه سراج الملوك أنه ذهب الى القاهرة ، وهناك قابل الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه ، وقام بوعظه, ونصحه بتقوى الله ، وطاعته واقامة العدل بين الناس والرفق بالرعية (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٨٧) ، وقد كانت انتقاداته المستمرة لكثير من البدع المحرمة في المجتمع الاسكندري ، وبعض المخالفات الشرعية في شؤون الأموال والمكوس, مدعاة لأن يغضب عليه القاضي ابن حديد ، قاضى الاسكندرية ، فضلا عن الفتاوي التي لم يتردد الطرطوشى عن اثارتها ، مثل قوله بتحريم الجبن الذى يأتي به الروم الى المدينة ، وتتابعت شكاوى ابن حديد ، وتقاريره السرية السيئة عن الطرطوشي للخليفة الفاطمي بالقاهرة (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٤٥٢) (المقري ا.، ١٩٦٨م، صفحة ٢ / ٨٨) ، الأمر الذي دفع الوزير الأفضل شاهنشاه الى أن يرسل في طلب الطرطوشى الى القاهرة ، ولما وصل الشيخ الى القاهرة ومعه خادمه ، أمر الأفضل تحديد اقامته في مسجد الرصد بالفسطاط ، حتى يبت في شأنه وقرر له راتبا شهريا بضعة دنانير من جزية اليهود .

وظل الطرطوشي في اقامته المحددة عدة أشهر ، حتى ضاقت نفسه وأصابه الملل ، فقال لخادمه : " الى متى نصبر اجمع لي المباح من الارض ، فجمعه وأكله ثلاثة أيام فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : رميته الساعة ، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل ، وولى بعده المأمون البطائحى ، فأكرم الشيخ اكراما كثيرا وله

ألف الشيخ سراج الملوك, وفي شوال من سنة (٥١٦ هـ / ١١١٩ م) ، وصل الطرطوشي من الاسكندرية بعد أن فرغ من تأليف سراج الملوك لتقديمه للمأمون البطائحى ، الذى أكرمه ، أمر بإنزاله في المجلس المهيأ للاخوة ، تقدم المأمون برفع أدوية الكتاب ، وأوطئة الحساب ، وسلام الأمراء ، وعمل السماط ، وسارع الى البادهنج ، واستدعى بالفقيه ، فلما شاهده وقف ، ونزل عن المرتبة ، وجلس بين يديه ، ثم انصرف الفقيه ، الطرطوشى ومعه أخو المأمون الى مكان أعد له , وحمل إليه ما يحتاج له ، وأمر مشرف الجوالي ، أن يحمل له في كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه ، وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له في الأيام الأفضلية ، "وصار المأمون يستدعيه في يومي راحته ، ويبالغ في كرامته ويقضى شفاعته " (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٨٨), ويذكر المأمون أن سبب هذه الزيارة ما أثاره الطرطوشى في الأيام الأفضلية حول بعض القضايا المتعلقة بالمواريث (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٨٨) ، فقد كان القضاة في مصر في العصر الفاطمي يتبعون المذهب الشيعي الذي يقضى بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها اذا كانت وحيدة لا أخ لها أو أخت ، وحرمان العصبة من المشاركة في الميراث ، وكانت النظم الوضعية المتبعة في الدولة الفاطمية بها خلل هي الأخرى لم يعجب الطرطوشي ، حيث كانت تقضى هذه النظم بأن يأخذ أمناء الحكم وهم الموظفون القضائيون الذين يقومون بالاشراف على شؤون المواريث ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٨٨ . ٨٩) ، وكان الطرطوشي يرى في ذلك مخالفة صريحة للشرع ، أي للمذاهب السنية ، فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت أكثر من نص التركة ، كما كان يرى في الأمر الثاني ظلما واغتصابا لحقوق الأيتام ، ومن واجب أولي الأمر المحافظة على أموالهم كاملة دون نقص (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٨٨ . ٨٩) ، ودار بين الطرطوشى والمأمون البطائحي حوارا طويلا حول هاتين القضيتين ، وقد قدم المأمون للشيخ اعتذاره عن القضية الأولى ، لأن الخليفة الفاطمي لن يوافق على أي تغيير ففي محتواها لأن الأمر فيها يتصل بصميم المذهب الشيعي ، وهو المذهب الرسمي للدولة وقال له : " أنا لا أقدر على أن أرد على الجماعة مذهبهم (يقصد الفاطميين) ، والخليفة لا يرى به و ينقضه على من أمر به ، بل آمر بشفاعة الفقيه أن أرد الجميع على رأى الدولة ، فيرجع كل أحد على حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله " (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٨٩) .

وأصدر المأمون أمرا للقضاة بأن يتبع القضاة في مسائل الميراث مذهب الميت, أما الأمر الثاني ، فقد وافق عليه المأمون ، وأمر " أن يكتب به بتعويض أمناء الحكم عما يقتضون من ربع العشر بتقرير جار لهم كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية " (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٨٩) , وصدر سجل رسمي في اخر ذي القعدة سنة (٥١٦ هـ / ١١٢٠ م) ، موقع من الخليفة الامر الفاطمي ، والوزير المأمون بهذه الأوضاع الجديدة ، وأرسل الى القضاة في كل أنحاء الدولة للعمل به (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٨٩) ، وهذا

يعكس مدى قوة هذا العالم الأندلسي الفقيه المؤرخ الطرطوشي ، الى الحد الذى تطبق فيه بعض قواعد المذهب السني في دولة شيعية, وقبل أن يعود الطرطوشي الى مقره في الاسكندرية, أخذ موافقة المأمون البطائحي على اقامة مسجد على نفقة الدولة على شاطئ الثغر بالإسكندرية وأمر المأمون القاضي ابن حديد " بموافقة الفقيه الطرطوشى على موضع يتخذه ، وأن يبالغ في اتقانه وسرعة انجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة " (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٩٢) .

وكما ذكر الطرطوشى للمأمون أن واحات البهنسا ، لا تقام الجمعة فيها لعدم وجود مسجد بها ، فأمر المأمون ببناء جامع بها ، وأقيم فيه خطيب وامام ، وقومة ،ومؤذنون ، وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم (المقريزي ت.، ١٩٩٦م، صفحة ٣ / ٩٢) ، ومن مؤرخي الأندلس الذين زاروا مصر أيضا ، و كان لهم ذكر بها يسع بن عيسى بن حزم (ت : ٥٧٥ هـ / ١١٨١ م) ، وهو من أهل بلنسية ، أقام في المرية ، ومالقه وعاش بمصر منذ سنة (٥٩٠ هـ / ١١٩٨ م) وكانت له علاقة وثيقة بالسلطان صلاح الدين الأيوبي ، فقد ألف له كتاب أسماه (المعرب في محاسن أهل المغرب) (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٤٩٦) (بالنثيا، ١٩٧٨م، صفحة ٢٤٢) , ومنهم أبو الخطاب بن دحية (ت : ٦٣٣ هـ / ١٢٤١ م) الذي قدم الى الديار المصرية وقضى بها بقية حياته ، كما ذكرنا قبل ذلك ، ومن مؤلفاته التاريخية (كتاب التنوير في مولد السراج المنير) (السيوطي، ١٩٠٩م، صفحة ١ / ٣٥٥) (خلكان، ١٩٦٥م، صفحة ٣ / ٤٤٨ . ٤٥٠)

الخاتمة :

١- ان هؤلاء العلماء الأندلسيين على اختلاف العلوم والمواد التي درسوها في مصر، يجمعهم قاسم مشترك واحد، وهو: أن معظم الذين جاء منهم الى مصر ، حتى نهاية القرن الخامس الهجري جاء بهدف تلقي العلم من المدرسة المصرية والعودة ثانية الى الأندلس، حيث العمل على بناء الحياة الفكرية الاسلامية في بلاد الأندلس في تلك المرحلة
٢- عملوا علماء هذه البلاد على الاتصال الشخصي المباشر بأقرانهم من علماء مصر والمشرق ، لأنّ مصر والمشرق كانا قد وصلا الى مرحلة كبيرة من النضج العلمي والثقافي
٣- أما معظم العلماء الأندلسيين الذين جاءوا الى مصر بعد ذلك ومنذ القرن السادس الهجري ، فكان هدفهم الاستقرار في مصر ، وعرض ما لديهم من علوم ومعارف في المدارس المصرية – هي خلاصة الفكر الأندلسي الذى حصلته أجيال كثيرة من سابقيهم من العلماء من المشرق والمغرب
٤- اسهمت الظروف السياسية السيئة في بلاد الاندلس ولا سيما في الفترة ، التي بدأت بسيادة المرابطين على بلاد الأندلس سنة (٤٨٣ هـ/١٠٩٠م) ، وكان عصر تأخر وانكماش للثقافة الأندلسية , ومن بعدهم

كان الموحدون ، وهؤلاء في عهدهم اضمحل سلطان المسلمين في بلاد الأندلس اضمحلالا واضحا ، وسقطت كثير من بلاد المسلمين ، في أيدى النصارى الإسبان ، مما اضطر كثير من أهل العلم والأدب والفكر من الأندلسيين الى الهجرة الى بلاد المغرب ومصر والمشرق

٥- فتحت مصر أبوابها لهؤلاء العلماء فعاشوا فيها يتمتعون بكافة حقوق المواطنة التي يتمتع بها المصريون ، وتجاوب هؤلاء العلماء – على النحو الذى رأيناه مع الحياة في المجتمع المصري ، وأصبحت لهم مكانتهم العلمية والاجتماعية بين اخوانهم من المصربين .

قائمة المصادر والمراجع :

ابراهيم بن علي ابن فرحون. (١٩٧٤م). *الديباج المذهب* (المجلد ط١). (محمد الاحمدي، المحرر) مصر: دار التراث.

ابن تغري بردي. (بلا تاريخ). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*. دار الكتب.

ابن سعيد. (١٩٥٣م). *المغرب في حلى المغرب*. مطبعة جامعة فؤاد.

احمد مختار العبادي. (١٩٨٧). *في التاريخ العباسي والفاطمي*. مؤسسة شباب الاسكندرية.

احمد العمري. (بلا تاريخ). *العلم والعلماء*.

احمد امين. (١٩٧٧م). *ظهر الاسلام*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

احمد بدر. (١٩٧٢م). *الاندلس وحضارتها* (المجلد ط٢). القاهرة: دار العلم.

احمد بن محمد ابن خلكان. (١٩٦٥م). *وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان*. (احسان عباس، المحرر) بيروت: دار صادر.

احمد بن محمد المقري. (١٩٦٨م). *نفح الطيب* (المجلد ط١). (احسان عباس، المحرر) القاهرة: دار صادر.

احمد مختار العبادي. (بلا تاريخ). *في تاريخ المغرب والاندلس*. مؤسسة الثقافة الجامعية.

الحسن بن زولاق. (١٩٣٣). *اخبار سيبوية المصري* (المجلد ط١). (محمد ابراهيم ، و حسين الدين، المحررون) القاهرة: مكتبة الاداب.

الذهبي. (بلا تاريخ). *سير اعلام النبلاء*.

السيوطي. (١٩٠٩م). *حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة* (المجلد ط١). القاهرة: المطبعة الشرقية.

الكندي. (بلا تاريخ). *ولاة مصر*. (حسين نصار، المترجمون)

المقري. (بلا تاريخ). *نفح الطيب*.

المقريزي. (١٩٨٧). *المقفى الكبير*. (محمد بعلاوي، المترجمون) دار الغرب الاسلامي.

المقريزي. (١٩٩٨م). *المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار* (المجلد ط١). (خليل منصور، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

انخل جننثالث بالنثيا. (١٩٧٨م). *تاريخ الفكر الاندلسي* (المجلد ط١). القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

تقي الدين احمد المقريزي. (١٩٩٦م). *اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا* (المجلد ط١). (محمد حلمي محمد، المحرر) القاهرة: المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية.

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي. (١٩٩٨م). *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة* (المجلد ط١). (محمد ابو الفضل، المحرر) القاهرة: مطبعة السعادة.

جمال الدين بردي الظاهري ابن تغري. (د.ت). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (الإصدار ج٤). مصر: دار الكتاب المصرية.

جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور. (١٩٩٤م). *لسان العرب* (المجلد ط٣). بيروت: دار صادر.

حسن علي ابراهيم. (١٩٧٨). *استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الاسلامي* (المجلد ط١). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

شمس الدين ابن الجزري. (١٩٨٠م). *غاية النهاية في طبقات القراء*. بيروت: دار الكتب العلمية.

عبد الله خورشيد البري. (١٩٧٠م). *القران وعلومه في مصر* (المجلد ط١). مصر: دار المعارف.

عبدالله بن محمد الازدي ابن الفرضي. (١٩٦٦م). *تاريخ علماء الاندلس* (المجلد ط١). مصر: الدار المصرية.

عياض القاضي. (١٩٩٨م). *ترتيب المدارك*.

لويس معلوف. (بلا تاريخ). *المنجد في اللغة والادب والعلوم* (المجلد ١٩). بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

محمد ابن الوليد الطرطوشي. (١٩٥٤م). *سراج الملوك* (المجلد ط١). (جعفر البياتي، المحرر) القاهرة: مطبعة بولاق.

نجوى معتصم احمد. (٢٠٠٥م). *الغزل في الشعر المصري من القرن الثالث الى نهاية العصر الفاطمي* (المجلد ط١). القاهرة: مكتبة الاداب.

هاينز. (١٩٩٩م). *الفاطميون وتقاليدهم في التعليم*. (سيف الدين، المترجمون) دمشق.

ياقوت الحموي. (١٩٩١م). معجم *الادباء* (المجلد ط١). بيروت: دار الكتب العلمية.